ما أصابنا اليوم و كل ما يصيبنا بما كسبت أيدينا

تأليف

منيرة سالم المرشد

مصدر هذه المادة :

الكتيبات الإسلامية

www.ktibat.com



كل ما يصيبنا بما كسبت أيدينا

إن كل ما أصابنا وما يصيبنا، وما سيصيبنا من فقر وجوع وذل وظلم وقهر واحتلال ونهب أموال وهدم للديار، وخروج على الحكومات، وفشل في رد كيد أعدائنا إنما هو كله بما كسبت أيدينا، ومن تقصيرنا في حق ربنا ومن إعراضنا عن العمل بشريعة ديننا الذي ارتضاه لنا خالقنا جل وعلا ورسولنا ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

قال ﷺ: «لا يصيب رجلاً خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر» [رواه الترمذي].

ما حصل للمسلمين في أحد من هزيمة، وما حدث في أول معركة حنين أنيط بما كسبت أيدي المؤمنين. ولما هدم الله سد مأرب لم يرجع ذلك إلى الأسباب المادية رغم وجودها، بل جعل سبب ذلك إعراضهم عن دينهم وظلمهم أنفسهم، وأناط الفعل بنفسه ليؤكد أنه هو الذي فعل بهم هذا لا الأسباب المادية البحتة.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ألا ترون: المجازر والفتن في العراق وفلسطين وأفغانستان و... في كل مكان فيه توحيد لله ﷺ!!

ألا ترون: المجاعات والأمراض والتشديد و.... وكثير من ..... في البلاد الإسلامية.

قال ﷺ: «المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء» [صحيح الجامع].

قال ﷺ: «خمس بخمس، ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر» [صحيح الجامع، الطبراني في الكبير].

قال ابن خيرة، وهو من أصحاب علي ﷺ: «جزاء المعصية: الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة. قيل وما التعسر في اللذة. قال لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصه إياها».

قال ابن القيم: «فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب ومخالفة أوامر الرب؛ فليس في العالم شر قط إلا والذنوب موجبتها».

قال ﷺ: «ما تواد اثنان في الله فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما» [صحيح البخاري].

ما الذنب وما السيئة وما الطاعة والحسنة

الحسنات والسيئات يراد بها النعم والمصائب. والحسنات هي النعم والطاعات التي يهديها الله لعباده. والسيئات هي البلايا والمعاصي التي تقع على الإنسان وتصيبه بذنوبه، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

والحسنات مأمور بها، والسيئات منهي عنها، قال تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤].

وقد فرق الله بين النوعين في الكتاب والسنة، كما في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» [رواه مسلم].

والسيئات تأتي من الجهل؛ فكل من عصى الله فهو جاهل، وكل من خشي الله فهو عالم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

الْعُلَمَاء﴾ [فاطر: ٢٨]. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

والعلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات وترك السيئات، وكل عاص فهو جاهل، قال ابن مسعود ﷺ : «كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاعتزار جهلاً».

وقد تفضل الله على الإنسان بأمور منها:

١- **الفطرة**: فكل مولود يولد على الفطرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» [رواه البخاري ومسلم].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن النبي ﷺ: «قال الله تعالى: خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» [رواه مسلم].

٢- أن الله هدى الناس هداية عامة: بما جعل فيهم من الفطرة من المعرفة وأسباب العلم، وبما أنزل إليهم من الكتاب وأرسل إليهم

من الرسل، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤].

أصل الشر

١- عبادة النفس والشيطان وجعلهما شريكين لله وأن يعدلا به:

ونفس الإنسان تفعل الشر بأمر من الشيطان؛ لذلك عباد الرحمن ليس للشيطان عليهم سلطان. اللهم اجعلنا ووالدينا وإخواننا والمسلمين والمسلمات منهم يا رب العالمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

لذا ادعى فرعون الإلهية، وكذلك النمرود، وفعل اليهود بادعائهم أن عزير ابن الله، والنصارى بادعائهم أن المسيح ابن الله، ومشركي أمة محمد أن علياً هو الله، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٤٣].

وأصل الشر في بني آدم كان الشرك بالبشر الصالحين الذين ماتوا فعكفوا على قبورهم ثم صوروهم تماثيل ثم عبدوهم، وكان هذا في قوم نوح، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ [نوح: ٢٣-٢٤]، وأذهب الله الأصنام لما أغرق أهل الأرض.

٢- الشرك بالشيطان:

فكل من لم يؤمن بأنه ﴿لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ﴾، أي: لا معبود مستحق للعبادة سواه، وأنه يجب أن يعبد، وأنه أمر أن يعبد، وأن لا يعبد إلا بما أوجبه مما شرع من واجب ومستحب فلابد أن يقعوا في الشرك وغيره.

لماذا الابتلاء بالذنوب

خلق الله الإنسان لعبادته وحده لا شريك له، وقد فطره على ذلك ودله عليه، وأمره بذلك وأرسل الرسل وأنزل الكتب. والكون أمامه يقرؤه في كل حين ليرى عظمته ووحدانيته وكماله وجماله سبحانه.

فإن لم يفعل ما خلق له وما فطر عليه وما أمر به عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي، قال تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً﴾ [الإسراء: ٦٣].

لذلك ليس للشيطان سلطان على المؤمنين بالله وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

فإخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإخلاص العبد الدين لربه مانع من فعل ضد ذلك، وإن لم يخلص لربه الدين ولم يفعل ما خلق لأجله وما فطر عليه، عوقب بتسلط الشيطان عليه حتى يزين له فعل السيئات، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله.

والمعصية ظلم للإنسان في حق ربه وحق نفسه، وظلمهم لأنفسهم نوعان:

١- عدم عملهم الحسنات.

٢- وعملهم السيئات.

فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

فالله خلق الإنسان وفطره على الحركة والعمل، فإذا لم يتحرك بالحسنات حرك بالسيئات عدلاً من الله، والقلب لا يكون إلا عاملاً، وكذلك النفس؛ لذا قيل: نفسك إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية. وجاء في الحديث: «مثل القلب: مثل ريشة ملقاة بأرض

فلاة، وللقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً» [رواه أحمد بن حنبل في مسنده]. ولذا سمي القلب بهذا الاسم لكثرة تقلبه.

والنفس بطبعها متحولة، فإنها حية والحركة والإرادة من لوازم الحياة ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أصدق الأسماء: حارث وهمام...» الحديث [رواه أبو داود]، فكل آدمي حارث وهمام أي عامل كاسب وهو همام؛ أي: يهم ويريد فهو متحرك بالإرادة.

***

ما يجب علينا فعله وقد حملنا الأمانة؟!

١- عبادة الله حق عبادته كما أمر سبحانه بذلك إتباع لا ابتداع!

في الحديث القدسي: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها...» الحديث [رواه مسلم]، والعمل بمقتضى الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

فالله هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ورازقه، فلماذا يعبد غيره؟

إذا علم الإنسان أن النعم كلها من الله، وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

علم ما يستحقه من الشكر صار علمه أن الحسنات من الله توجب عليه الصدق في شكره لله والتوكل عليه، وعلم أن الشر قد انحصر سببه في نفسه فضبط ذلك، وعلم من أين يؤتى فاستغفر ربه مما فعل وتاب واستعان بالله واستعاذ به مما يعمل بعد، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

قال السلف رضوان الله عليهم: «لا يرجو عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه». وهذا هو التوحيد الحق وهو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة.

٢- تطهير النفس ومجاهدة هواها:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

خالف هواك ما استطعت فإنما هواك عدو والخلاف صديق

والمؤمن لا يصر على ذنب، بل يتوب منه فيكون حسنة!!

والذنب يوجب ذل العبد وخضوعه ودعاء الله واستغفاره إياه وشهوده بفقره وحاجته إليه، وإنه لا يغفر الذنوب إلا هو فيحصل للمؤمن بسبب توبته من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك، والمؤمن في ذنوبه بين أمرين:

أ- إما أن يتوب فيتوب الله عليه فيكون من التوابين الذين يحبهم الله.

ب- وإما أن يكفر عنه بمصائب تصيبه ضراء فيصبر عليها فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب، وبالصبر عليها ترتفع درجاته.

قال ﷺ: «والله لا يقضي للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» [رواه مسلم].

والصبر على الضراء أعظم من الصبر على السراء! قال ﷺ: «أعوذ بك من فتنة الفقر وشر فتنة الغنى» [رواه البخاري].

فالفقر يصلح عليه خلق كثير، أما الغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم. لهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين؛ لأن فتنة الفقر أهون؛ لذا كان من أحسن الدعاء قوله: «اللهم لا تجعلني عبرة لغيري، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني مني». قال ﷺ: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» [رواه الترمذي].

٣- التوكل على الله لا التواكل:

قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، فالله سبحانه هو القادر المقتدر القدير جل في علاه وتقدست أسمائه وصفاته وهو الذي بيده كل شيء؛ النصر، والهزيمة، القوة، والضعف، العز، والذل، الغنى والفقر و.... فيتحرك المسلم متوكلاً على ربه عاملاً بالأسباب، مستيقناً من نصرة مستعظماً ذنبه، يخاف من ذنبه لا من عدوه؛ لأن الله معه، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٤- معرفة حقيقة الذنوب يضعف مكانة العدو في النفوس:

فإذا عرف المسلم أن الأعداء إنما سلطوا علينا؛ بسبب ذنوبنا لا بقوتهم وبمعاصينا لا بعدتهم ولا بعددهم تقوى روحه وتسمو، فيستغفر الله ﷻ ويتوب إليه، فهو دائم تائب منيب إلى ربه سبحانه.

٥- تغيير الأنفس الذي هو شرط لتغيير الواقع:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

***

فإذا صلحت عقيدة العبد صلح عمله، كيف؟

- إذا غير المسلمون ما يعتقدونه في ربهم من أنه في كل مكان، والله ﷻ يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، أي: علا. قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧].
- إذا غير المسلمون ما يعتقدونه من إساءتهم لسلف الأمة رضوان الله عليهم جميعاً والحق سبحانه يقول: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].
- إذا غير المسلمون ما لحق عقيدتهم من عفن العلمانية ولحق باقتصادهم من أدران الاشتراكية.
- إذا غير المسلمون ما لحق عقيدتهم من عقيدة الجبرية والاحتجاج بالقدر على جمودهم وكسلهم ومخالفتهم لدينهم.
- إذا غير المسلمون ما بأنفسهم من حقد وحسد و.... لمحبة في الله ولله. قال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله. كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه. التقوى هاهنا. بحسب أمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» [رواه البخاري].

- إذا غير المسلمون مجالس الغيبة والنميمة لمجالس التناصح في الله ولله. قال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام» [متفق عليه]. قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

والنفس بفطرتها التي خلقها الله إذا تركت كانت مقرة لله بالإلهية محبة له تعبده لا تشرك به شيئا، ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن.

٦- استشعار المسئولية في كل شيء:

عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته» [صحيح البخاري]. فالمسئولية من السؤال، أي: التكليف ومن كلف حوسب.

قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. فالمسئولية إخلاص دائب في أداء الواجب وحياة للضمير في مراقبة الله ﷻ وسعي أكيد لمرضاته وعلى قدر القيام بالمسئولية يكون الجزاء والثواب.

قال تعالى: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

أ- فالمسلم مسئول عن عقيدته يحافظ عليها نقية صافية لا تشوبها شائبة يؤدي ما فرضه الله عليه، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ب- ومسئول عن نفسه التي بين جنبيه؛ فسعادته في الدارين موقوفة على التزامها الطريق المستقيم والعمل الصالح، فالمسلم يؤدب نفسه ويطهرها ويجنبها ما يفسدها من المعتقدات الباطلة ويتعاهدها بالصبر والمصابرة كل حين ومراقبة الله في السر والعلن، فيحملها على فعل الخيرات ويدفعها إلى الطاعة كما يصرفها عن الشر والفساد، فهو مسئول عنها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وهي ملك لله ﷻ؛ لذا حرم الله قتلها بغير حق كما حرم الانتحار وإيرادها المهالك، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ [النساء: ٢٩].

إن التخلق بخلق ما يكون عادة عمل شاق على النفس ولكن بالمجاهدة وصدق النية والتدريب والتمرس والمران يكون سجيته ثابتة، وتثبت ذلك أو تلغيه البيئة التي يعيشها الفرد، فكل منا يكتسب من بيئته أخلاقه وسلوكه.

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

فكل منا يستحسن وفق تربيته ما تستحسنه أسرته ومجتمعه، ويستقبح ما تستقبحه. أضف إلى ذلك تكرار العمل، فكم من خلق مع التكرار أصبح عادة وإذا احتسب الأجر كان عبادة!

ج- ومسئول عن الجوارح التي وهبها الله إياها، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

د- مسئول عن عرضه وشرفه، فقد حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وسد طرقها، فقد أحل الله الزواج الشرعي الذي فيه صيانة وحفظ للزوجة الزوج والأبناء، وأمر بالاستئذان، وحرم الخلوة، وأمر بحفظ الجوارح التي هي بريد للحرام و... وجعل لكل فرد في المجتمع حقوق وعليه واجبات متى ما وُفيت فادت ومتى ما أهملت أهلكت!!

هـ- ومسئول عن ماله. فالمال عصب الحياة ولا قيام لها بدونه، فقد أمر الله عباده بالكسب الحلال والسعي في الأرض لكسب الرزق

بالوجه المشروع وأداء حق الله فيه من زكاة وصدقة وحرم الربا والسرقة والغش وأكل أموال الناس بالباطل، فقد جعل الله المال لينفق فيما أمر لا فيما حرم، ولا ليدخر فيما لا نفع معه.

و- والمسلم مسئول عن التبليغ والدعوة لله ﷻ بخلقه وسلوكه مع خلق الله ليحيا دين الله في قلب وجوارح كل من يؤمن بالله، قال تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقد أثنى الله ﷻ على حبيبه ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وعن أبي الدرداء ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق» [رواه مسلم]، وحسن خلقه ﷺ انعكس على صحابته رضوان الله عليهم جميعاً، فكانوا أمثالاً في الفضائل يحتذى بها في كل زمان.

لذا: وجب على كل منا اختيار الصاحب والصديق، فقد قيل: «الصاحب ساحب».

وقيل:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى
عن المرء لا تسأل وسل عن
قرينه فكل قرين بالمقارن يتقدي

إن المراقبة الدائمة لله ﷻ والاعتراف بالخطأ والانكسار بين يدي الله سبحانه ومجاهدة النفس وضبطها وتدريبها على ما يحبه الله ورسوله واختيار القرناء الصالحين لهي أكبر معين على التخلق الحسن واللحاق بالرسول ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم، جمعنا الله بهم بمنه وكرمه.

ز- والمسلم كذلك مسئول عن مجتمعه ووطنه. إن سلوكنا إذا ساء أو صلح ساء مجتمعنا أو صلح بناء عليه؛ فما المجتمع إلا أفراد تجمعوا وكونوا مجتمعاً، وقد سمى الله ﷻ الإنسان إنسان؛ لأنه يستأنس بمن حوله فهو اجتماعي بطبعه يتأثر بمجتمعه ويؤثر فيه فتسمو نفسه وروحه إذا سما مجتمعه وتمرض إذا فسد مجتمعه.

والوطن هو المكان لذلك المجتمع ولتلك الأفراد، وهو الأرض التي شب على ثراه وترعرع بين جنباته، وهو الأم الرؤوم والأب الحنون والحضن الدافئ؛ ولذا يحرص كل منا على حمايته والدفاع عنه بدمائنا وأرواحنا وأموالنا وبكل ما أنعم الله به علينا حريصين على سلامة أرضه وصفاء سمائه ووحده صفة وطاعة ولاة أمره ومقدرين لثرواته وممتلكاته وأنظمته، وكل منا مسئول عن أمته منتم إليها معتز بها، قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [رواه مسلم].

ح- والمسلم كذلك مسئول عن كلمته، إن من نعم الله التي لا تحصى ولا تعد نعمة الكلام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ*وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠]، والكلمات تخرج من الفم غالباً، فالفم موطن عدة غرائز، كغريزة الكلام وغريزة الأكل وغريزة الشرب وغريزة التكاثر؛ لذلك عني الإسلام به وحذر منه، قال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة» [رواه البخاري]، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» [رواه البخاري].

لذا: من صفات المؤمن الصادق الانضباط في الكلمة واستشعار قيمتها فهي من التقوى.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً {٧٠} يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

وللكلمة شأن عظيم؛ فقد تدخلك النار أو تدخلك الجنة، قال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم» [رواه البخاري ومسلم].

لذلك قيل: «لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك فهو سائقك ومركبك يوم القيامة».

لذا وضعه الله بين فكين وبين شفتين وجعله واحداً! ومع ذلك ما أكثر خروجه وتطاوله وقتلاه! إن أفضل المسلمين وأفضل الناس من سلم المسلمون من لسانه ويده، كما أخبرنا المصطفى ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه» [صحيح البخاري].

ولنتذكر قوله ﷺ لمعاذ بن جبل عندما دله على جوامع الخير، قال له: «... ألا أخبرك بملاك ذلك كله» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: «كف عليك هذا». قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» [رواه الترمذي].

وقد قيل:

يصاب المرء من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

فعثرته في القول تذهب رأسه وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

لقد حفظ الله ابن آدم وحفظ عمله من خير أو من شر، كيف ؟

أ- وضع عليه ملكين موكلين بكتابة كل ما ينطق به، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. لذا هو مراقب لله في كل ما ينطق به، كاف أذاه عن خلق الله، قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» [رواه الترمذي].

ب- حرم عليه الكذب، قال ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا» [صحيح مسلم].

قد شان صدقي عند الناس كذبهم وهل يطابق معوج بمعتدل

فالنكت بهدف إضحاك الناس، وكتابة الباطل ونشره، ومدح الفاسقين وتمجيد السفلة و.... كله كذب، وأقبح الكذب الكذب على الحق سبحانه وتعالى وعلى رسله وعلى أنبيائه وعلى دينه وعلى علماء الأمة.

ج- تحريم الغيبة والنميمة كما مر معنا سالفاً.

د- تحريم اللعن، قال ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة» [رواه مسلم].

هـ- تحريم الاستهزاء والسخرية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

و- كراهة الخصومة والجدال، قال ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدل» [رواه الترمذي].

ز- عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» [رواه أبو داود].

وقد قيل:

ودع المزاح فرب لقطه مازح جلبت إليك مساوئاً لا تدفع

لذا:

لابد من التأدب بآداب الكلمة من حسن اختيار لها وللزمان والمكان التي تلغى فيه ومراعاة المتكلم معهم، وأن يكون ملغيها مستوعبها وهاضمها.

لقد حملنا الأمانة ونحن مسئولون أمام الله ﷻ عنها. فلابد من المحاسبة الدائمة لأنفسنا وتمحيص أعمالنا واستشعار معية الله فالحق سبحانه يمهل ولا يهمل.

إن يقين المرء بمراقبة الله له في كل أحواله لهي كفيلة بمشيئته سبحانه من وقايته من المهالك شريطة إخلاص النية، والله الهادي لسواء السبيل.

بقلم: بنت الإسلام

منيرة سالم المرشد

المراجع

- القرآن الكريم.
- موسوعة الحديث الشريف – الكتب الستة – دار السلام للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، الطبعة الثانية.
- عدنان محمد آل عرعور، السبيل إلى منهج الطائفة المنصورة، (٥) صفات الطائفة المنصورة ومفاهيمها، مؤسسة قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، الطبعة الثانية.
- الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية، الحسنة والسيئة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.